

1### مقدمة:

تعتبر الظاهراتية (Phenomenology) أحد الاتجاهات الفلسفية الأكثر تأثيراً في القرن العشرين، ومن المفيد التعمق في مفهومها من خلال تحليل النصوص الفلسفية الكلاسيكية التي أرست أسسها. ويمر هذا التحليل من خلال تجارب الوعي والفهم الإنساني من منظور أولي وتجريبي، مروراً بأفكار روادها مثل هوسرل وهايدغر وميرلوبونتي وسارتر.

2### مفهوم الظاهراتية:

تُعرف الظاهراتية بأنها الدراسة العلمية لوعي الإنسان وتجربته، دون الاستناد إلى أي فرضيات مسبقة أو نظريات متعالية. وتركز الظاهراتية على كيفية ظهور الأشياء وتجليها في الوعي، وكيف يُعطي الفرد معنى لتجاربه.

3### نشأة الظاهراتية:

تعود جذور الظاهراتية إلى الفيلسوف إدموند هوسرل (1859/1938) (Edmund Husserl) الذي أسس هذا الاتجاه في بداية القرن العشرين. في أعماله: "تأملات في الظاهراتية" و"الأفكار" (Ideas)، قدم هوسرل منهجه/منهجية تستند إلى ضبط التجربة الإنسانية عبر "تحليل الظواهر"، حيث دعا إلى وضع جميع الآراء المسبقة جانبا والتركيز على التجارب المباشرة لما يظهر في الوعي.

4### رواد الظاهراتية:

1. **إدموند هوسرل**

يُعتبر مؤسس الظاهراتية، وقد أسهمت أعماله في تطوير طريقة "التأمل الفينومينولوجي" * والتأكيد على ضرورة العودة إلى التجربة الفردية.

* التأمل الفينومينولوجي (Phenomenological Reflection) هو أسلوب في الفلسفة يهدف إلى دراسة الظواهر كما تُختبر وتُعاش بصفة مباشرة، بعيداً عن التفسيرات والافتراضات السابقة. يتمحور هذا النوع من التأمل حول:

فهم الظواهر كما تظهر لنا: بعبارة أخرى، يركز الفينومينولوجيون على كيفية ظهور الظواهر والتجارب في وعينا، دون التسرع في تفسيرها من خلال النظريات أو المفاهيم المسبقة.
العودة إلى الأشياء نفسها: أحد المبادئ الرئيسية في الفينومينولوجيا هو "العودة إلى الأشياء نفسها" (Back to the things themselves). ويعني هذا محاولة فهم الظواهر كما هي في تجاربنا الحسية والذهنية، بعيداً عن التحيزات والتفسيرات المسبقة.
التعليق الظاهراتي يُعرف أيضاً باسم الـ"إيبوخي" (Epoche). في هذه الخطوة، يحاول الشخص تعليق جميع افتراضاته وتوقعاته المسبقة ليتمكن من رؤية الظواهر بشكل أكثر وضوحاً وتجريبياً.

الوعي والاستبطان: التأمل الفينومينولوجي يتطلب التركيز الشديد على حالات الوعي الذاتية وكيفية تجربة الفرد للظواهر. هذا يتضمن التأمل العميق في كيفية ظهور الأشياء في العقل وما تعنيه هذه التجارب للفرد.
باختصار، التأمل الفينومينولوجي هو نهج فلسفي يسعى لفهم التجارب الإنسانية في شكلها النقي والمباشر، ويعتمد على تعليق الافتراضات والتفكير بعمق في كيفية ظهور وتشكيل التجارب في وعينا.

كما دعا هوسرل في أعماله بالعودة إلى التجربة، مثل "الأفكار: مقدمة لفلسفة الظاهرية"، حيث يطرح مفهوم "التقليل الفينومينولوجي" * (Epoché) كوسيلة للتخلص من الافتراضات والنظريات ليعود الفيلسوف إلى التجربة الأولى. يقول هوسرل: "نحن مدعوون للرجوع إلى الأشياء نفسها" (Husserl, Ideas) وهنا، يشير هوسرل إلى ضرورة ترك جميع المفاهيم المسبقة جانباً لفهم كيفية ظهور الأشياء في الوعي. هذا يحقق نمطاً من التفكير يتمحور حول التجربة الذهنية اليومية، حيث يعتبر الفهم البشري للواقع مملكة من التجارب الذاتية.

وعليه تعتمد فينومينولوجيا هوسرل على التمييز بين ظهور الموضوعات في الوعي وحضورها المحايث له، وبين الفعل الذي يقوم به الوعي لإحضار الظاهرة فيه. وفي ذلك يبتعد هوسرل عن النظريات التجريبية والعقلية في نفس الوقت. ذهبت النظريات التجريبية إلى أن الموضوع حاضر في العالم الخارجي، وما على الوعي إلا أن يتلقاه سلبياً، وذهبت النظريات العقلية إلى أن العقل لا يدرك الموضوع نفسه، ذلك لأن مهمة إدراكه ملحقة بالحس، أما العقل فهو يدرك الكلي والمجرد من الموضوع.

2. **مارتن هايدغر (1889-1976)**:

كان هايدغر تلميذاً لهوسرل وأخذ الظاهرية إلى آفاق جديدة من خلال دمجها مع مسائل الوجودية والأنطولوجيا. 12 نوفمبر 2024 حيث أضاف أبعاداً وجودية وفلسفية جديدة، من خلال عمله "الوجود والزمان" (Being and Time)، يأخذ هايدغر الظاهرية إلى بعد جديد من خلال ربطها بوجود الإنسان (Dasein) وعلاقته بالعالم. في هذه المقولة يستند هايدغر على مفهوم "الانهماك" وكيف يظهر الوجود من خلال الأنشطة اليومية. يقول هايدغر: "الوجود هو ما يُظهر نفسه، ويجب علينا التفكير في كيف يتجلى الوجود في تجربتنا اليومية." هذا المفهوم

* التقليل الفينومينولوجي، المعروف أيضاً بمصطلح "الإيبوخي" (Epoché)، هو مفهوم مركزي في الفينومينولوجيا. يمثل هذا المصطلح طريقة خاصة للتعامل مع تجاربنا وظواهر العالم من حولنا، ويشمل النقاط التالية:

1. التعليق أو التعليق الفكري:
الإيبوخي يشير إلى تعليق جميع الأحكام والافتراضات المسبقة عن العالم. بمعنى آخر، نحاول تعليق (تأجيل) جميع الأفكار والأحكام التي لدينا حول الظواهر لتبقى مجرد تجارب حسية بدون تحليل أو تفسير فوري.

2. العودة إلى الأشياء ذاتها:
بعد تعليق الأحكام، يمكننا العودة إلى التجربة الصافية للظاهرة كما تظهر لنا في وعينا. هذا يسمح لنا بفهم الظواهر كما هي، وليس كما تمثلها المفاهيم والنظريات السابقة.

3. التجربة الصافية:
الإيبوخي يساعدنا على الوصول إلى التجربة الصافية، حيث يمكننا رؤية الأشياء بوضوح وبشكل مباشر دون تشويه التفسيرات المسبقة. هذا يمكننا من فهم الظواهر بطريقة أكثر نقاءً وصدقاً.

4. أهمية الوعي:
في السياق الفينومينولوجي، التركيز على الوعي وكيفية ظهور الظواهر في وعينا هو أمر أساسي. الإيبوخي يساعدنا على الانغماس بعمق في تجاربنا الداخلية لفهم أفضل لكيفية تشكل الإدراك باختصار، التقليل الفينومينولوجي هو أداة فلسفية تهدف إلى خلق نوع من "التعليق الفكري" للأحكام المسبقة، مما يسمح لنا بفهم الظواهر كما هي في تجربتنا المباشرة والصافية. هذه الطريقة تمكننا من النظر إلى العالم بعيون جديدة، بعيداً عن التأثيرات الخارجية والتفسيرات المسبقة.

يُعزى الفكرة بأن فهم الوجود ليس مجرد فكرة نظرية بل تجربة حيوية تتطلب تفحص التجربة الذاتية للأفراد وممارستهم اليومية.

3. **موريس ميرلوبونتي (1961/1908)**:

فيلسوف فرنسي تأثر بفينومينولوجية هوسرل وتركز أعماله على العلاقة بين الجسد والوعي، مؤكداً على أهمية الجسد في تشكيل التجارب الفينومينولوجية.

عرّف موريس ميرلوبونتي الظاهر اية في بحثه عن ظاهراتية الإدراك (Phenomenology of Perception) (1945) بأنها دراسة الجوهر، بما في ذلك جوهر الإدراك والوعي. ولكنه يقول أيضاً إن الظاهراتية هي طريقة لوصف طبيعة اتصالنا الإدراكي.

وعن الوجودية فقد قال بأنها تدرس الصعوبات والإدراكات والتجارب الملموسة في الوجود الإنساني. **وذكر أن الجسد هو وسيط الوعي وكيان الإدراك.** كما أكد على أن التجارب الإنسانية لا تؤثر على مجالها الخاص ولكنها موجودة في الأجساد. وبالتالي فهذا التصور يُظهر كيف أن الجسد يشكل تجربة الوعي، وكيف أن إدراكنا للعالم يعتمد على تفاعل الجسد مع المحيط.

4. **جان بول سارتر (1980/1905)**:

يعتبر من رواد الفلسفة الوجودية، وقد استفاد من الظاهراتية لتطوير أفكاره حول الحرية والوجودية. تأثرت أفكار سارتر بالظاهراتية، حيث استخدمها لتطوير رؤيته الوجودية حول الحرية. في مؤلفه "الوجود والعدم" (Being and Nothingness)، يقول: "كون الوجود ينطوي على الحرية، أن نكون موجودين بشكل حقيقي يتطلب من المرء أن يختار."

يعارض سارتر الفكرة التقليدية للوجود كشيء ثابت ويطرح أن التعريف الذاتي يتم عبر اختياراتنا وتجاربنا.

المبادئ الأساسية للظاهراتية

1. **الاسترجاع للظاهرة** وهو مبدأ العودة إلى الظواهر كما هي في تجربتنا، دون فرض تفسيرات مسبقة.
2. **التعليق الفينومينولوجي** يقوم هذا المبدأ على تعليق جميع الأحكام والأفكار المسبقة لفهم الظاهرة بشكل نقي.

3. ****النية (Intentionality)****: يشير هذا المبدأ إلى أن الوعي دائماً موجه نحو شيء ما، وأن كل تجربة هي علاقة بين الذات والموضوع.

مجالات تطبيقات الظاهرية:

1. ****علم النفس****: تستخدم الظاهرية في فهم الوعي وتجارب الأفراد، مما يساهم في تطوير أساليب علاجية تركز على تجارب المريض الداخلية.
2. ****العلوم الاجتماعية****: تلعب الظاهرية دوراً مهماً في دراسة الثقافة والسلوك الاجتماعي، حيث تُستخدم لتفسير كيف يتكون المعنى في سياقات اجتماعية معينة.
3. ****دراسات الفن****: تُستخدم لتحليل التجربة الجمالية والتفاعل بين المتلقي والقطعة الفنية، من خلال فحص كيفية تدفق التجربة الجمالية في الوعي.
4. ****الفلسفة الأخلاقية****: يمكن تطبيق الظاهرية في مجالات الأخلاق من خلال فحص التجارب الأخلاقية وكيف تشكل القيم من خلال التجربة الإنسانية.
5. ****دراسة التفاعلات اليومية****: كيف يمكن للظواهرية أن تقدم رؤى عميقة حول كيفية تشكيل التفاعلات الإنسانية في الحياة اليومية.

خاتمة

تُعتبر الظاهرية نهجاً فلسفياً مهماً يستند إلى التجربة الإنسانية، وقد أثرت بشكل عميق على مجموعة واسعة من العلوم الإنسانية. تجسد الظاهرية دعوة للتركيز على كيف أن العالم يظهر لنا وكيف يُعطى المعنى لتجاربنا، مما يجعلها أداة قوية لفهم الذات والعالم من حولنا.

إن فهم الظاهرية وتطبيقاتها يتطلب تفاعلاً عميقاً مع تجارب الحياة والتأمل في طبيعة الوعي الإنساني، مما يساعدنا على تشكيل رؤية أوضح عن الكيفية التي نختبر بها العالم.